الأصول المعمارية

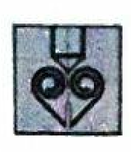
ملوية سامراء أثناء الصيانة

ان الشكل اللولبي في منارتي
جامع سامراء الكبير وجامع أبي دلف
وسلمهما الحلزوني قد حظيا باهتمام
خاص من قبل المؤرخين المحدثين
وعلماء الآثار . ولقد أثار هذا الشكل الغريب للملوية
خيال العديد من الباحثين
فكتبوا عن الأصل المعماري لها، ومدى
علاقتها بالتصاميم
البنائية للزقورات العراقية
القديمة والساسانية .
إلا أننا لم نجد في ما كتبوه أي ذكر لنشاط
العرب المعماري الذي
اقيمت الملوية على يدهم في سامراء، وفي عصر حكمهم
الذهبي، ولا ندري لم أغفل الباحثون
جهود العرب المعمارية في العصر الاسلامي.
وسوف نتناول في الصفحات
التالية الآراء
والنظريات التي بسطها الباحثون
في أصل الملوية، ثم
نناقش كل رأي نقاشاً يقوم على
التفصيل المعماري
والبناني وعلى التحليل العلمي
للنصوص التاريخية
والادبية، ثم نبدي رأينا في النهاية.



الملوية

● الدكتور طاهر مظفر العميد



في وسعنا أن نقسم النظريات التي وضعت سابقاً لتوضيح شكل منارة الملوية الى مجموعتين، المجموعة الأولى ترى أن الشكل المعماري للملوية كان قد انحدر من شكل الزقورة القديمة للبابليين والآشوريين، ويبدو أن أقدم تأييد لهذه النظرية جاء به «ثيلمان» في عام ١٨٧٥م[١]، فهو في وصفه للملوية يقول: «انها برج لأثر عظيم ظاهر، ذات شكل فيه تقليد لبرج بابل القديم»[٢].

وقد اتخذ هذا الأقتراح كأساس للاراء التي أبداها الكثير من المؤلفين والكتاب الذين أعقبوا «ثيلمان» منهم، دي بيليه، كوتيل، السيدة بل، ريفورا، بيجون، كونل، تيريسا، وكريزويل[٣].

والمجموعة الثانية من الباحثين تعتقد أن شكل الملوية مشتق من «طربال غور» الذي يقع على مقربة من فيروز آباد بايران[٤].

ودراسة دقيقة للزقورات البابلية والآشورية وبرج غور الذي اكتشف في فيروز آباد، توضح أن الآراء التي جاء بها اكثر الباحثين تخضع للنقاش، إذ أن من الصعوبة بمكان الأعتقاد أن منارة جامع سامراء الكبير، ومنارة جامع أبي دلف قد اقتبس هيكلها وتخطيطها مباشرة من الزقورات. فلقد أقيمت هذه الزقورات على مخطط مربع أو مستطيل، ذات سلالم قائمة بذاتها ترتفع الى القمة في الجانب الجنوبي أو الجنوبي الشرقي، بينما تكون هذه المنائر مدورة ولها سلم يرتفع لولبياً حولها.

كشفت التنقيبات الأثرية العديد من الزقورات في بلاد ما بين النهرين وفارس، مثل زقورة عكركوف[٥]. وزقورة خورصاباد[٦] وزقورة بابل وبرج غور[٧].

ولقد اخترنا هذه الزقورات الثلاث وبرج النار الفارسي لكي نوضح الفكرة التي أشرنا اليها قبل قليل. نظراً لأن هذه الزقورات وهذا البرج معروفة ومشهورة ولأنها تمثل مختلف الأقاليم وكذلك مختلف العصور.

وسوف أذكر في الأسطر التالية خلاصة للوصف العام الذي قدمه المؤرخون وعلماء الآثار عن هذه الزقورات، من دون التوسع في التفاصيل، لكي نبين شكلها والأهداف التي شيدت من أجلها[٨].

زقورة عكركوف ذات سلم ثلاثي لا يزال قائماً يطل على الأنقاض[٩]، يرتفع الى ١٨٧ قدم فوق مستوى

---

1) Lycklama Nijeholt in Voyage en Russie and Caucase et en Perse, III, P. 380

وقد كتب «نيجولت» في عام ١٨٧٤ بأن الملوية تشبه برج بابل، ولكنه لم يقدم أي رأي أو مقارنة.

2) Streifzuge im Keukasue, P. 355; English transl. Journey in the Caucasus, Persia and Turkey in Asia, II, P. 140.

٣) دي بيليه في كتابه Prome et Samarra, P. 115 ينسبها الى الزقورات الكلدانية. كوتيل في بحثه J.A.O.S. xxx The Origin and History fo the Minaret, صفحة ١٤٥ يشير الى تأثر الملوية بالزقورة البابلية. أما السيدة بل في كتابها Amurath to Amurath صفحة ٢٤٦ فتشير الى المعابد الهرمية في بلاد آشور وبابل. ريفورا في مؤلفه Moslem Architecture, P. 147 وبيجون في كتابه History of Art.11, P. 220 فيشيران الى تأثر الملوية بالابراج المدرجة لبلاد آشور وبابل. أما كونل في كتابه باللغة الالمانية الموسوم Die Kunst des Islam ونسخته الانكليزية ترجمة واطسون بعنوان Islamic Art and Architecture صفحة ٥١ فانه ينسب تأثرها بالابراج المدرجة «الزقورات» وبالمباني الصينية التي ترجع الى عصر تانك. أما تيريسا في مؤلفه L'Art hispans mauresque, صفحة ٣٠ فينسب تأثرها الى الزقورات البابلية. أما «كريزويل» في كتابه Early Muslim Architecture, II, P. 264 فانه يشير الى برج بابل.

٤) كان عالم الآثار الالماني «هرزفيلد» اول من طرح هذه الفكرة في كتابه Samarra صفحات ٢٨ ــ ٣٠، وكذلك في كتابه Archaologisch Reise, الجزء الاول، صفحة ٧٧، وكذلك في كتابه Erster, صفحة ١٢، وقد ترسم نظرية هرزفيلد هذه العالم Thiersch في مؤلفه Pharos صفحة ١١٢ وصفحة ١١٤. أما Bulley في مؤلفه Ancient and Mediveal Art يشير الى تأثير المعابد الآشورية والبابلية. أما «ماركيه» في كتابه Manuel d, Art Musulman, I Architecture الجزء الاول، صفحة ٣٩ فانه يشير الى تأثير الزقورات الفارسية.

5) Parrot, Sumer, P. 314; Champdor, Babylon, P. 172

6) Place, Ninive. I, P. 137.

7) Flandin and Coste, Voyage en Perse, Text, P. 39; Dieulafoy, L'Art antique de la Perse, IV, PP. 79-84.

٨) لأجل معرفة الاغراض التي اقيمت الزقورات من أجلها تراجع المصادر التالية:

Saggs, The Greater that was Babylon, PP. 33 and 355; Parrot, op. cit., P. 98; Hooke, Babylonian and Assyrian religion, P. 90.

9) Parrot, op. cit., P. 314.



السهل المنبسط[١٠]. أما زقورة خورصاباد لا تزال أنقاضها في ثلاثة طبقات واضحة وسليمة، وقد اكتشفها عالم الآثار «بلاس» الذي وجدها تشكل مربعاً كاملا طول ضلعه ٤٣،١٠م. وعند الزاوية الجنوبية فهناك سلم عرض كل درجة فيه ٢م وعمقها ٨٠سم وارتفاعها ٥سم، ويمتد على طول جانب واحد ويلف الزاوية ثم يرتفع ماراً بجميع الجوانب بالتعاقب حتى يجد المنقبون أنفسهم ثانية عند النقطة التي بدؤا منها ولكن أعلى منها بـ ٦،١٠م. وجوانب البرج مزخرفة بسلسلة من النتوءات والتجاويف (الطلعات والدخلات). وعند الحافة الخارجية للسلم توجد آثار سور كان في حالة حفظ جيدة في موضعين. ويستمر السلم يدور حول البرج في اتجاه معاكس لاتجاه عقارب الساعة كما في ملوية سامراء. وارتفاع كل طبقة من هذه الطبقات ٦،١٠م، وقد صممت لتكون مع بقايا الطبقة الرابعة، وجعل كل طبقة أقل من الطبقة التي تحتها بـ ٤م بسبب اقتطاع ٢م للسلم[١١].

يظهر من هذا الوصف العام أنه من غير المحتمل أن تكون زقورة عكركوف قد استخدمت كنموذج للملوية، إذ أنه ليس هناك أي تشابه واضح بينها.

والزقورة الثانية هي زقورة خورصاباد في العراق. ويبدو أنها الزقورة الوحيدة التي تحمل اسلوب ملوية سامراء كما يشير بلاس[١٢]. وعلى كل حال فأن التصميم الذي أعاد وضعه «بلاس» للزقورة لم ينل الموافقة إذ انتقده العالم كولدويه[١٣] الذي يعتقد بأن «بلاس» قد سمح لخياله أن يجنح به بعيداً، إذ أنه لم يعثر في تنقيباته على بناء مشابه ليدعم رأيه، ويقول «بلاس» مؤكداً، كما أشار كريزويل، بأنه كان يتوقع أن يجد بناء دائرياً[١٤].

والمثال الثالث الذي اعتمدنا عليه هو برج بابل، ويسمى بـ «اتيمنا نكي» التي تعني «بيت أساس السماء والأرض»[١٥]. ويعتبر هذا البرج من أفضل الزقورات المعروفة. وكان البرج قد شيد في بلاد ما بين النهرين القديمة في الألف الثالث قبل الميلاد[١٦]. وقد ذكرت قصته في سفر التكوين. ومن الواضح أن الأشارة في تلك القصة كانت تخص زقورة بابل[١٧].

قاست بابل الكثير من غزوات الفرس، فقد استولى عليها «كورش» مرتين في عامي ٥٣٨ و ٥٢٥ قبل الميلاد[١٨]. وليس هناك من دليل يشير الى أن برج بابل قد تهدم في ذلك الوقت. ولكن فيما بعد وأثناء حكم «دارا الثالث» قام الفرس، مع تنامي تعصبهم للدين الزرادشتي، بتهديم عدد من المعابد في مدينة بابل، ومن المحتمل أن يكون البرج العظيم من بينها[١٩].

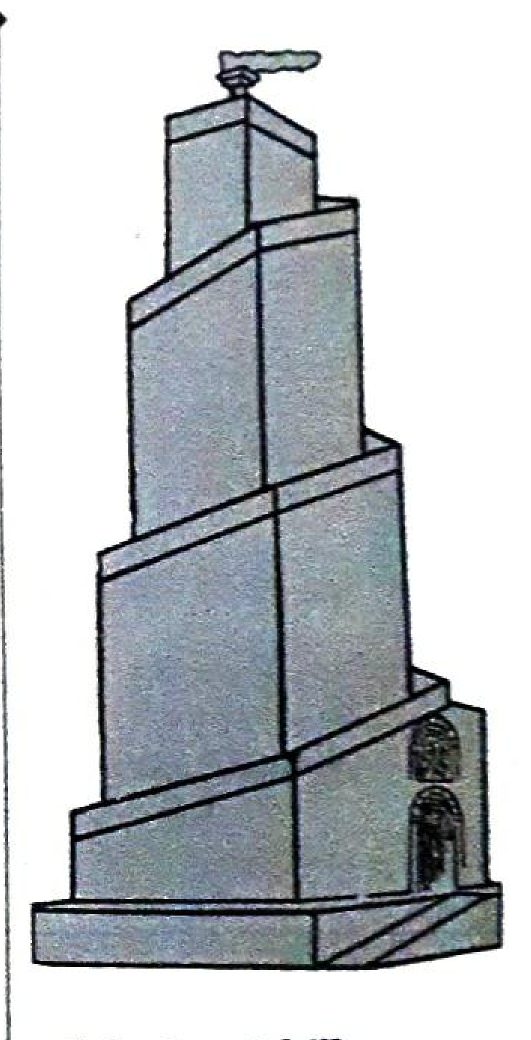
ويبدو أن البرج أصبح خراباً على يد «احشويريش» قبل أن تتهدم الأقسام الأخرى من المدينة[٢٠]. إذ ثار «شمش – ارباء» ملك بابل في عام ٤٨٣ قبل الميلاد، فأحاط الجيش الفارسي المدينة تحت قيادة «احشويريش» واحتلها[٢١].

ومن الحقائق التأريخية الثابتة التي أشرنا اليها قبل قليل، يظهر أن برج بابل لم يكن في حالة جيدة عندما زاره المؤرخ الاغريقي «هيرودوت» أثناء زيارته لمدينة بابل في عام ٤٥٨ قبل الميلاد. وعلى كل حال، فان الوصف الذي قدمه هذا المؤرخ المعروف يبين أنه كان للبرج سلماً حلزونياً من الخارج فيقول:

«في وسط الأقليم هناك برج ذو بناء متين، ٢٢٠ ياردة في الطول والعرض، وفوقه يرتفع البرج الثاني وفوقه الثالث وهكذا الى الأعلى حتى الثامن. والصعود الى القمة يكون من الخارج بواسطة ممر يدور حول البرج. وفي منتصف الطريق الى القمة يجد المرء مكاناً للراحة ومقاعد لكي يجلس عليها الناس لبعض الوقت في طريقهم الى القمة. وعلى قمة البرج معبد فسيح وفي داخله مضجع بحجم غير اعتيادي كثير الزخرفة بمنضدة ذهبية في جانبه»[٢٢].

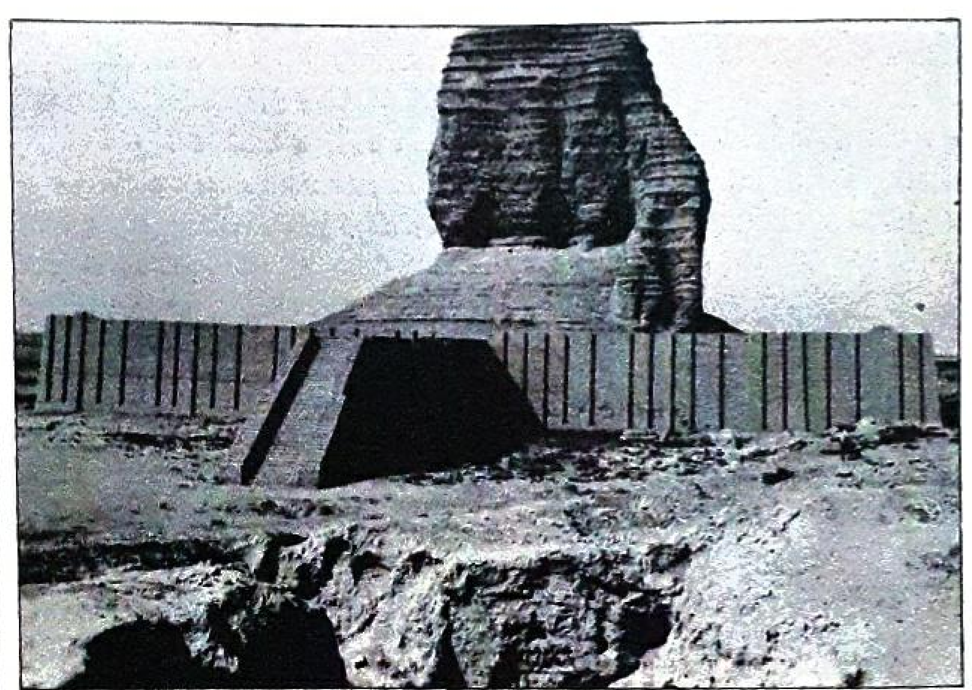
رواية «هيرودوت» توضح حالة برج بابل في عصره، غير أن هذه الحالة وضحت اكثر في عام ٣٣١ قبل الميلاد (أي بعد ١٢٧ سنة من زيارة هيرودوت للبرج) عندما زار الاسكندر المقدوني بابل فوجد البرج كومة انقاض[٢٣]. ويظهر أن الوصف الذي قدمه المؤرخون لم يكن دقيقاً، إذ يصعب علينا أن نصدق بأن «برج ذو بناء متين» كما أطلق عليه هيرودوت، يصبح بعد ١٢٧ سنة «كومة انقاض». وفي عام ٣٣١ قبل الميلاد قيل أن عشرين الف جندي مقدوني قد طلبوا لأزالة الأنقاض عن البرج وممراته ولكن لم يبدأ بالعمل أبداً[٢٤].

ولقد أثارت شهرة هذا البرج إهتمام المؤرخ «هيرودوت» وغيره من الرحالة، كما أوضح «شامبدور» فأنه



10) Champdor, op. cit. P. 127.
11) Place, Ninive, 1, PP. 137-148
والوصف المذكور أعلاه مقتبس من كريزويل في كتابه Early Muslim Architecture الجزء الثاني صفحة ٢٦٢.
12) Place, op. cit., 1, PP. 137-148.
13) Die Temple Von Babylon, P.65, Dombart art., "Der Babylonische Turm", Alt. O., XXIX, Taf. 1-4.
14) Creswell, Early Muslim Architecture, 11, P. 262.
15) Parrot, Nineveh and Babylon, P. 228. Champdor, op. cit., P. 127.
16) Champdor, op. cit., P. 127.
17) Bible, XI, 1-9.
18) Short, Ahistory of Religious Architecture, P. 26.
19) Schneider, Babylon is everywhere, P. 79.
20) Razi, Ta, rikhe Kamile Iran, P. 28.
21) Champdor, op. cit., P. 127.
22) Herodotus, History of Herodotus, 1,P.255.
23) Schneider, op. cit., P. 79.
٢٤) عيسى الأعجي، صرح ابل المدرج، مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد، العدد الثاني ١٩٦٠، صفحة ٢٢٠.

▼ زقورة عكركوف بعد الصيانة





▲ زقورة بابل كما تخيلها علماء الآثار

استكشفوا المنطقة المجاورة ووصفوا بتفصيل أقرب الى الخيال برج بابل .

وهذا الاستنتاج القائم على الحقائق التأريخية يمكن أن ينطبق على لوحـة «ابزاكيلا»(٢٥) التي عثر عليها العالم الآثاري «سميث» في رحلته الاخيرة(٢٦) . وكما يذكر «سميث» فان هذه اللوحة تقدم وصفاً واضحاً لمعبد «بل» في بابل(٢٧) . وقد كتب اللوح في عام ٢٢٩ قبل الميلاد واوضح انه كان لهذا المعبد سبعة طوابق، والطابق السابع منها يمثل معبـد «الأله بل»، وارتفاعه الكلي فوق الأساس ٣٠٠ قدم، ومساو تماماً لطول القاعدة(٢٨)، وهـذه الأبعاد المتساوية تذكرنا بأبعاد الاهرامات .

واشار «كوتيل» بأن البرج كان يستعمل اثناء حكم الدولة السلوقية حتى عام ٢٩٦ قبل الميلاد(٢٩) . واذا كان هذا صحيحاً، فأن البرج بشكله الأصلي يصبح بلا فائدة الا اذا أجريت له بعض التجديدات والترميمات .

اننا نؤكد على هـذا البرج، ونوليه اهتماماً خاصاً لكي نبرهن بأن زقورة بابل – التي يقول بعض الباحثين انها استخدمت كنموذج للملوية سامراء – لم تكن في حالة جيـدة في القرن التاسع الميـلادي عندما بنيت ملوية جامـع سامراء الكبير .

ويؤيد «كريزويل» عالم الآثار البريطاني، الفكرة الـتي تقول أن الملوية قد اقتفت نموذج زقورة بابل، ويدعم نظريته هذه باقتباسه وصفين موجزين كتبهما كل من «هاربو كريشن» و «بنيامين التطيلي»(٣٠).

يصف «هاربو كريشن» الاسـكندراني برج بابل بأن: «هناك ٣٦٥ درجة تؤدي الى حرم في قمته»(٣١). وهذا يدل على أنه لم يبق شيء من الزقورة عدا الدرجات والتي استدل على وجودها من بقايا آثارها فحسب.

والوصف الثاني كان لـ «بنيامين التطيلي» من كتاب النصف الثاني للقرن الثاني عشـر فقال: «ان طول أساسه حوالي ميلين، وعرض البرج ٤٠ ذراعاً، وطوله ٢٠٠ ذراعاً. وعلى مسافة كل عشرة أذرع هناك منحدر يدور حول البرج حيث يستطيع المرء بواسطته أن يصعد الى القمة»(٣٢). والقياسات التي أعطاها بنيامين التطيلي، على ما يبدو، لم تكن دقيقـة، لأننا نعرف من رواية «هيرودوت» ومن المعلومات الـتي وردت في لوح ابزاكيلا بأن قاعدة البرج (أو الطابق الأول) تؤلف شكلا مربعاً، بينما تشكل وفقاً لرواية بنيامين التطيلي مستطيلا، وهذا شـيء غير اعتيادي، لأن معظم الزقورات لها قواعد مربعة، ومن هذه الحقيقة نعتقـد أن بنيامين كان يصف فقط كومة من انقاض على

٢٥) كان هذا اللوح قد استـنسخ على صعيل من قبل «سميث» أثناء رحلته الاخيرة الى نينوى حيث كان قد قدر أن لا يعود مرة أخرى. وقد بقي تقريره عن هذا اللوح المرجع الوحيد عن معلوماتنا بخصوص الموضوع الذي تناوله اللوح، حتى اكتشف «شيل» النص في حيازة خاصة. وقد نشر الآن بشكل مفصل من قبل «شيل» و «ديلافوا» تحت عنوان:
Esagil ou le temple de Bel-Marduk a Babylone. The Excavations at Babylon, P.327
انظر كتاب كولدوي الموسوم.

26) Koldwey, op. cit., 192f.

27) Ibid., PP. 192f.

28) Koldwey, op. cit., PP. 192f.

29) Gottheil, op. cit., 140.

30) Creswell, Early Muslim Architecture, 11, P. 263.

٣١) النص المذكور أعـلاه مقتبس من كتاب كريزويل «العمارة الاسلامية الأولى» الجزء الثاني صفحة ٢٦٤.

٣٢) رحلة بنيامين التطيلي المنشورة في J.Q.R., XVII, P. 34.

هيأة رابية وبعض آثار منحدرات حولها. وهكذا يظهر بأن الزقورات المدرجة لم تكن ترى في الوقت الذي بنيت فيه الملوية. ومن المحتمل أن تكون هذه الزقورات قد اختفت تحت أكوام من الأنقاض والأتربة حتى القرون الحالية عندما كشفت التنقيبات الاثرية عن بعضها.

ولو كانت بعض الزقورات العراقية القديمة ترى في مناطق بابل وآشور بصورة واضحة في العصر الاسلامي لذكرها الرحالة العرب مؤكداً، وبالأضافة الى هذا، فأن حمدالله المستوفي (المتوفى عام ١٣٤٠ ميلادية) أشار أنه لم تشيد أية منارة بمثل هذا الطراز (بقصد الملوية) من قبل أي أحد قبل عصره. (بقصد عصر المتوكل)(٣٣).

والفريق الثاني، من جهة أخرى، يرى أن شكل الملوية قد اشتق بطريقة غير مباشرة من «برج غور» قرب فيروز آباد في ايران، وأول من قال بهذا الرأي عالم الآثار الألماني هرزفيلد(٣٤).

ويعتقد «ديلافوا» أن «برج غور» كان ينحدر من الزقورات القديمة التي كانت تشبه زقورة خورصاباد، ويقول أيضاً ان الزقورة الأخيرة كانت نموذجاً لبرج غور(٣٥).

ويؤيد «هرزفيلد» وجهة نظر «ديلافوا» مبيناً أنه مصيب تماماً(٣٦)، ولهذا فأن هرزفيلد قدم في البداية نظريته التي تقول: بأن ملوية جامع سامراء قد اقتفت اسلوب برج غور. وهو يعتبر بأن ملوية جامع سامراء ما هي في الواقع إلا زقورة، ويدعي بأن هذه الملوية تمثل المرحلة الأخيرة في تطور الزقورات البابلية، ويدعي أيضاً بأن خط التطور قد تلاشى بعد ملوية سامراء(٣٧).

وقد وصف كل من «فلاندن» و «كوسته» برج غور في عام ١٨٤٣م بأنه كومة كبيرة يرتفع تقريباً ٣٣م، ذو شكل مربع الزوايا وقاعدة كبيرة مربعة طول كل ضلع منها ٩م، ولا شيء يبرز من جوانبها الأربعة، ولا حتى فتحة من أي نوع تؤلف مدخلا للداخل، ويتألف البناء الآن من صخور اكثر بقليل من صخور أسسه. وفي وسط الشقوق والحفر وغيرها التي حدثت هنا وهناك على مر السنين يستطيع المرء أن يميز آثاراً متجهة اتجاهاً واحداً مستمراً، وتبدأ هذه الآثار في مستوى منخفض ثم ترتفع تدريجياً متخذة نفس النموذج الملتوي ثم تدور حول الجهات الأربعة، ويرى «فلاندن» بأنها ربما تمثل سطحاً مائلا أو سلماً والذي من المحتمل أنه يؤدي الى القمة في دورة أخرى حيث يوجد هناك المعبد(٣٨).

وبعد أربعين سنة تقريباً تفحص «ديلافوا» البرج ووصفه بأنه كومة مستطيلة ارتفاعها ٢٨م، محاطة جهاتها الأربعة بآثار سلالم مؤلفة مربعاً وكل دور يرتد عن سابقه بمسافة مساوية لـ ١/ ١٠ القاعدة(٣٩).

ونتيجة هذا التقصي قدم «ديلافوا» اعادة للبناء الموضح في [الشكل – ١] وظل تصميم «ديلافوا» دون معارضة من عام ١٨٨٤ حتى عام ١٩٢٤م عندما زار «هرزفيلد» برج غور. اذ قام بتحريات أثرية جعلته ينتقد التصميم السابق مقترحاً بأن الجسر المربع كان عبارة عن غطاء للبرج بسلم معقود، وأما جدرانه الخارجية فقد اختفت تماماً ولم يبق سوى بعض آثار المنحدر والعقود(٤٠).

ومهما يكن من أمر، فأن تجديد «ديلافوا» للتصميم وانتقاد «هرزفيلد» له لا يغيران من الحقيقة في أن هذا البرج يشابه كثيراً الزقورات العراقية والفارسية القديمة.

وقد حاول «هرزفيلد» أن يبرهن على أن زقورة خورصاباد في العراق كانت النموذج لبرج غور في ايران، بينما اتخذ برج غور كنموذج للملوية(٤١).

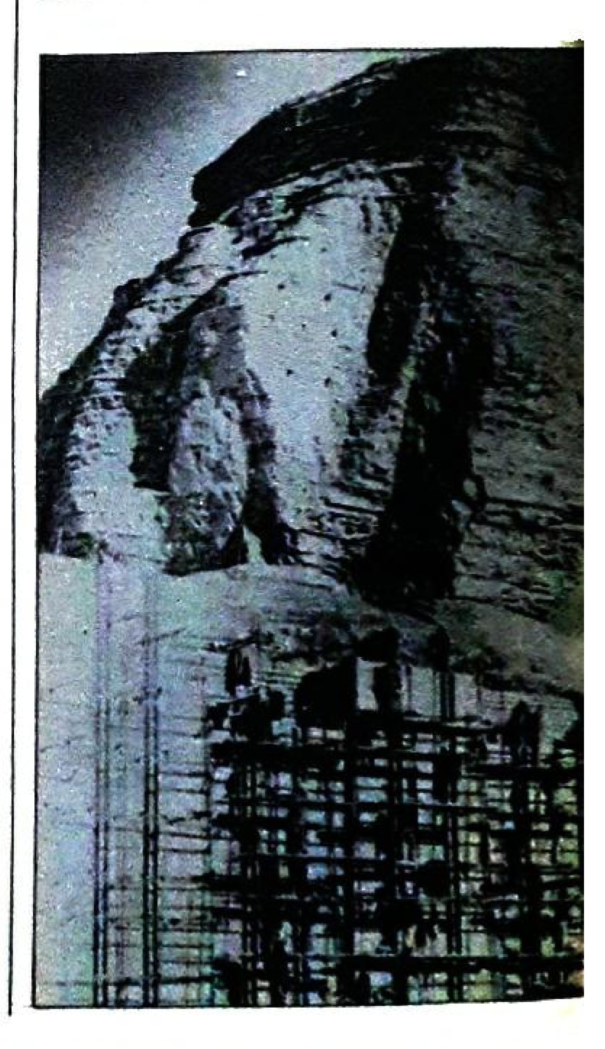
ويظهر أن «هرزفيلد» وغيره من علماء الآثار الذين ترسموا اقتراحه قد اخفقوا في محاولتهم هذه للبرهنة على أن الملوية قد اشتقت عن طريق غير مباشر من برج غور، إذ أن النموذج الذي قدموه لم يكن اختياره موفقاً، وقد توضحت هذه الحقيقة في رواية أوردها الجغرافي الأصطخري [المتوفي عام ٣٤٠ هجرية – ٩٥١ ميلادية].

ومن الجدير ذكره هنا، أنه لا «هرزفيلد» ولا اولئك الذين تقبلوا نظريته قد أشاروا الى هذه الرواية، ولم تعط أسباب تجاهلهم للنص. وعلى كل حال، فأن الاصطخري يصف بناء مدينة غور كما يصف البرج وما تبقى منه فيقول:

«وهو بناء بناه اردشير ويقال أنه كان من الارتفاع بحيث يشرف منه الانسان على المدينة جميعها، ورساتيقها، وبنى أعلاه بيت نار واستنبط بحذائه من جبل ماء حتى أصعده الى أعلى هذا الطربال كالفوارة ثم ينزل في مجرى آخر وهو بناء من جص وحجارة وقد استعمل الناس اكثره وخرب حتى لم يبق منه الا اليسير»(٤٢)

وأهمية هذه الرواية تكمن في حقيقة تقديمها معلومات مهمة عن حالة البرج في زمن المؤلف، الا أنها لم تقدم أية معلومات عن زمن فقدان البرج لهيأته وتحوله الى خرائب. ومن المحتمل أن هذا قد حدث منذ زمن بعيد قبل عصر الأصطخري. وتوضح هذه الحقيقة أن برج غور لم يكن في حالة جيدة عند وقت بناء الملوية.

وينبغي أن نذكر هنا، بأنه ليس هناك أي شبه كبير بين ملوية جامع سامراء وبين هذا البرج، الذي نحن بصدد



زقورة عكركوف أثناء الصيانة ▲

الحديث عنـــه ، والواقع فان الشبه الوحيد الذي من الممكن أن نعترف به هو نسبة ارتفاع القاعدة الى الارتفاع الكلي للبرج ، بينما يلاحظ أن هناك عدة اختلافات بينهما ، وعلى وجه الخصوص ، شكل الطوابق وعددها ، واذا صرفنا النظر عن هذه النقطة ، فانه حتى الوقت الحاضر ، لم يقرر أي حل بعد لتحديد شكل السلم . وليس هناك اتفاق بين «ديلافوا» و«هرزفيلد» ، ومع ذلك ، فان الدراسات الأثرية اللاحقة قد تكشف الشكل الأصـلي وتبين هل أن السلم يدور حول الواجهات كما يذكر ديلافوا(٤٣) ، أو أنه مغطى بقبو نصف اسطواني كما لاحظ هرزفيلد(٤٤).

لم يكن تأثير الاتراك في العمارة العباسية قوياً كتأثيرهم في النواحي السياسية والعسكرية ، ولقد كانوا رجال جبال حيث جمعوا ليصبحوا عبيـــداً ، فانتقلوا من مالك الى آخـــر ، وبعد ذلك ، في عصر الخليفة المعتصم ، سيطروا على جميع الامبراطورية العباسية ، وجذبتهم الأعمال السياسية والعسكرية اكثر من أي شيء آخر .

وعلى كـــل حال ، ففي وسعنا أن نستنتج من بعض النصوص التأريخية ، أنه اذا كانت الملـــوية متأثرة بمؤثر خارجي ، فمن المحتمل ، أن يكون الالهام ، كما يظهر لنا ، قد جاء من سوريا أو مصر ، حيث تم استدعاء العدد الكبير من المهندسين ورجال الأعمـــال والفنيين لتشييد مدينـــة سامراء في زمن المعتصم ، وقـــد أوضح اليعقوبي هـــذه النقطة بصورة جلية (٤٥) .

وقد روى اليعقوبي أيضاً بأن المعتصم قـــد استدعي « من كل بلد من يعمل عملا من الأعمال أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل والغرس وهندسة الماء ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض ، وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر وحمل من الكوفه من يعمل الأدهان ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة فأنزلوا بعيالهم بهذه المواضع واقطعوا فيهـــا وجعل هناك أسواقاً لأهل المهن بالمدينة»(٤٦) .

وعلى الرغم من أن اليعقوبي لم يذكر بأن المهندسين والحرفيين قـــد استدعوا في زمن المتوكل ، الا أنه أكتفى بالاشارة الى أن المتوكل قد أمـــر «محمد بن موسى المنجم ومن يحضر بابه من المهندسين أن يختاروا موضعاً»(٤٧) . ولكنه على الاكثر ، قد ترسم خطى المعتصم ، اذ من غير شك . ان الكثير من الأعمال المعمارية قد نفذت في عصره أكثر من تلك التي نفذت في عصر المعتصم .

ان الجند الترك الذين اصبحوا القـــوة الرئيسية في الجيش العباسي في عصري المعتصم والمتوكل ، قد جمعوا من مناطق متعددة من مختلف الاقاليم الاسلامية ، وازداد عددهم في المجتمـــع عن طريق شراء أسرى الحـــرب وعن طريق دفع الخراج بالعبيد .

كان أصل بعض الجنود الأتراك في سامراء من سمرقند ، وقد روى اليعقوبي موضحاً بأن جعفر الخشكي قال : «كان المعتصم يوجه بي في أيام المـــأمون الى سمرقند الى نوح بن أسد في شراء الأتراك فكنت أقدم عليه في كل سنة منهم بجماعة ، فأجتمع له في أيام المـــأمون زهاء ثلاثة آلاف غلام ، فلما أفضت اليه الخلافة ألح في طلبهم واشترى من كان ببغداد من رقيق الناس» .

فان كان الرأي ، بأن اسلوب الملوية قد نقل عن برج غور ، فمن الاهمية بمكان ان نتأمل هل انه جلب الى العراق عن طريق الاتراك المارين عبر ايران(٤٨) .

والظاهر ، انه من غير المحتمل ، ان يسلك الاتراك طريقاً معيناً ومحدداً في رحلتهم خلال بلاد ايران الى العراق . إذ ، كما اوضح المقدسي ، كانت هناك في ذلك الوقت عدة طرق موجودة في ايران(٤٩) . وكذلك لأن مدينة «غور» كانت تقع في اقليم فارس(٥٠) في الجنوب الغربي من ايران والى الشرق من الخليج العربي بنى مدينة «غور» الملك اردشير الذي سماها «اردشير خره»(٥١) ، ثم سماها العرب فيما بعد«غور»(٥٢) عقب احتلالهم لايران ، ثم غير بعد ذلك عضد الدولة اسمها الى فيروز آباد(٥٣) .

وفيروز آباد ، كما هي موضحة في الخرائط والأطالس التأريخية ، تبـــدو بعيدة عن الطريق التي تربط موطن الأتراك الأصلي بكل من ايران والعراق ، ومع ذلك ، فان الأتراك الذين قدموا الى العراق من مناطق مختلفة فأنهم على الاغلب ، قد سلكوا الطرق الموجودة سابقاً في شمال ووسط ايران .

وهكذا يظهر ، ان الرأي القائل بأن تأثير الزقورات البابلية في ايران قد نقل الى سامراء في القرن التاسع عن طريق الأتراك لم تؤيده بصورة تامة الملامح المعمارية أو الدلائل التأريخية كذلك .

لذا فليس هناك نماذج من الزقورات البابلية او بيـــوت النار الفارسية ، في حالة مصانة وجيـــدة الحفظ ، لتدلل على أن المعمار الذي بنى الملوية ، قد تأثر بأساليبها ومخططاتها .

وبناء على ذلك ، فأننا نشير ، أن هذا النموذج من الملوية لم يكن موجوداً في تأريخ مبكر في العراق وايران ، وأننا نرى أن اسلوبها قد ابتكره العرب لأول مرة في الجامع الكبير بسامراء في العصر العباسي .

---

٣٣) حمدالله المستوفي، نزهة القلوب، صفحة ٤٩ النسخة الانكليزية.
٣٤) للتفاصيل تراجع كتب هرزفيلد، Samarra, PP. 28-30, Archaologische Reise., 1, P. 77.
35) op. cit., IV, P. 79.
36) Samarra, P. 26.
37) Ibid., PP. 35f.
38) op. cit., Text, P. 39.
39) Dieulafoy, op. cit., IV, PP. 79-85.
40) Art., "Reiseferícht", Z.D.M.G., N.F., 5, PP. 25 4f.
النص المذكور أعلاه مقتبس من اطروحة الدكتور غازي رجب محمد الموسومة.
The Minaret and its relationship to the Mosque in Early Islam. P. 170.
41) Herzfeld, Samarra, PP. 26f.
٤٢) الاصطخري، مسالك الممالك، صفحة ١٢٤.
43) Dieulafoy, op. cit., IV, PP. 79-84.
٤٤) ذكر كريزويل في مؤلفه E.M.A., 11, P. 263 بأن هرزفيلد قد أخبره بأنه كان مقتنعاً بأن سلم هذا البرج كان مغطى بقبو نصف اسطواني، إذ أن آثاره لا زالت تشاهد في مواضع كثيرة.
٤٥) اليعقوبي، البلدان، صفحة ٣٢.
٤٦) اليعقوبي، البلدان، صفحة ٣٩.
٤٧) اليعقوبي، البلدان، صفحة ٤١.
٤٨) هذا الرأي بســـطه الزميل الدكتور غازي رجب محمد في اطروحته التي حصل بها على درجة الدكتوراه والتي أشرنا اليها قبل قليل، صفحة ١٧١.
٤٩) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفـــة الأقاليم، صفحة ١٠.
٥٠) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، صفحة ٤٧. ابن حوقل، المسالك والممالك، صفحة ١٧٩. المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، صفحة ٤٤١. الاصطخري، مسالك الممالك، صفحة ٩٧. ابن الفقيه، البلدان، صفحة ٢٠٤. ياقوت، معجم البلدان، ١٤٦/٢.
٥١) ابن حوقل، المسالك والممالك، صفحة ١٧٩. الاصطخري، مسالك الممالك، صفحـــة ٩٧. ابن الفقيه، البلدان، صفحة ١٩٨.
٥٢) ابن حوقل، المسالك والممالك، صفحة ١٧٩. ابن الفقيه البلدان، صفحة ١٩٨.
٥٣) ياقوت، معجم البلدان ١٤٦/٢.



مجلة فكرية شهرية عامة تصدر في بغداد رئيس التحرير : شفيق الكمالي

من محتويات هذا العدد

الغلاف الأول: مقطع من شباك في بيت بغدادي
الغلاف الثاني: زقاق عابر لمدينة الكاظمية في بغداد يمثل الطابع العام للمراكز المتصدعة في الأحياء القديمة للمدن العراقية
تصوير السيد زهير العطية

العدد 5
كانون الثاني 1976

المراسلات • مجلة آفاق عربية • الصرافية ـ بغداد • هاتف : 22011 ـ 22012
• صندوق بريد : 4032 (اعظمية) • العنوان البرقي : آفاق ـ عراق

تصميم وطبع مؤسسة رمزي للطباعة ـ بغداد ـ تلفون 38051


آفاق عربية